الروايّة التاريخيّة

حول صدر الإسلام في بلاد الشام
بين الفن والتاريخ

● د . إبراهيم السعافين ●

مدخـــل :

لم ينل عصر صدر الإسلام عناية كافية من كتاب الرواية التاريخية الرواد . ولعل ذلك يعود إلى اهتمام معظم روائيي هذه الفترة (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) بالتماس موضوعات رواياتهم من الفترات السياسية التي تحفل بأحداث الفتن والمؤامرات والدسائس والمغامرات ، بما يتفق مع أساليبهم في كتابة الرواية في الأغلب الأعم .

وسنقصر حديثنا على أربعة روائيين وظَّفوا الأحداث التاريخية في رواياتهم على اختلاف ما بينهم في النظرة إلى التاريخ وهي الموهبة الروائية ، وهم : سليم البستاني في روايته : « الهيام في فتوح الشام »(١) ، وجورجي زيدان في روايته « أرمانوسة المصرية »(٢) لأن حوادثها تجري في كل من مصر والشام وفرح أنطون في روايته : « فتح العرب لبيت المقدس »(٣) ومعروف الأرناؤوط في رواياته : « سيد قريش »(٤) و « عمر بن الخطاب »(٥) و « فاطمة البتول »(٦) .

ولعل من المفيد أن نتعرف على النظرية الروائية لهؤلاء الكتاب وطبيعة أذواقهم في هذه الفترة .

فقد لاحظ الدكتور عبد المحسن بدر أن جورجي زيدان الذي عرف برواياته حول « تاريخ العرب والإسلام » سلك مسلكاً مغايراً لبعض كتّاب الرواية التاريخية في الغرب مثل الكسندر دوماس الاب ووالتر سكوت رائد الرواية التاريخية ، ورأى أن الفارق الأساسي بين جورجي زيدان والكاتبين المذكورين ، أن روايات دوماس الاب ووالتر سكوت تأثرت تأثراً واضحاً بالإحساس القومي الذي ساد الفترة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، وأن هذا الإحساس ألهب خياليهما وعاطفتيهما ، فجعلا من التاريخ خادماً لهذا الإحساس ولذلك اهتما بالجانب الخيالي أكثر من الجانب التاريخي ...

« وإذا كان كتّاب الرواية التاريخية من الغربيين ، قد اهتموا بإحياء الماضي و لم يهتموا بصحة المعلومات التاريخية ، وحاولوا تقديم رواية ناجحة ، فإن جورجي زيدان يوشك أن يكون على نقيضهم ، فإن اهتمامه لم يكن موجهاً إلى إحياء الماضي القديم ، وذلك لأن الفكرة القومية لم تكن قد نضجت وتبلورت في مجتمعنا ...

وإذا كان جورجي زيدان يذكر أن غرضه أن يعلّم التاريخ في قالب قصصي مشوق فإنه لا يلتزم الوقائع التاريخية تماماً ، وقد يختار روايات ضعيفة أو يختلق بعض الروايات أحياناً ، وهذا ما دعا بعض الدارسين إلى أن يذهبوا إلى أن جورجي زيدان « حين يختار موضوع رواياته لا يلجأ إلى الفترات المشرقة التي تمثل أمجاد التاريخ العربي دائماً ، ولكنه يختار المواقف الحساسة التي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين تتصارعان على النفوذ والسيطرة ... »(٧) .

ولقد اهتم سليم البستاني أيضاً بالوقائع التاريخية في رواياته التاريخية ، وحاول ، مثلما فعل زيدان وغيره ، أن يقنع القارئ بتوثيق مادته العلمية من كتب التاريخ العربية والغربية ، بيد أنه كان أحياناً يفسر التاريخ على هواه ، وبما يتفق مع وجهة نظره إلى أحداث التاريخ ، وبما يتفق أحياناً مع تطور الأحداث والشخصيات . فها هو سليم البستاني يقول في مستهل روايته :

« إن خطب أمير المؤمنين والرسالات التي جرت بينه وبين قواد الجيوش العربية ، وهي منقولة عن تاريخ فتوح الشام وغيره »(٨)

مثلما أرفق جورجي زيدان بروايته « أرمانوسة أو فتح مصر » ثبتاً بمراجعه العربية والغربية في نهاية الرواية .(٩)

ويفسر سليم البستاني سبب تقديمه بعض الحقائق التاريخية إطاراً للجانب الغرامي بانصراف الناس عن هذه الحقائق وميلهم إلى متابعة أخبار العاشقين ، بما يوحي باهتمامه بالجانب التاريخي ، وبأهمية دوره في الرواية إذ يقول :

« هذا وربما لو كنا قد أطلنا الكلام المتعلق بوصف حالة الأمة العربية الساكنة في بلاد العرب

الأصلية في هذا الزمان وفي كل الأزمنة المعروفة التي سبقته ، فإن كثيراً من قرّاء الروايات لا يجبون هذه الحقائق المفيدة ، بل يكتفون بالوقوف على خبر العاشق والمعشوقة وهذا خطأ مبين ، لأننا لا نقدر أن نفهم حقيقة مركز العاشق ولا مركز المعشوقة ولا الحوادث الجارية ، ما لم نقف على تواريخ أزمانهم وعلى عاداتهم وحروبهم ، هذا وكم من فائدة تاريخية يحصل الإنسان عليها بواسطة روايات فيكون قاصداً الوقوف على خبر المتحابين فيعثر بحقيقة تاريخية أو نتيجة حكمية أو إصلاح أو تنكيت يلزمه أكثر من غيره ، فالضجر من الكلام عن هذه الأمور في بلاد ظروفها كظروف بلادنا خطأ عظيم » .(١٠)

وعلى الرغم من أن البستاني يشعرنا ، حين يقدم روايته ، بأنه يجمع بين دور الروائي ودور المؤرخ ، بل إنه يحاول إقناعنا بأن مهمته الأولى هي تحقيق دور المؤرخ فنراه يفسر مهمته في تعليقه على حادثة اقتحام أسوار بصرى بمائة رجل بحيلة رومانوس ضد الديرجان إذ يقول :

ومن المعلوم أنه يسوغ للمؤرخ في كل حال أن يستنتج ما هو ذو فائدة مع قطع النظر عن المتعلقات الدينية ، وتركها للكتب المذهبية ، لأن المقصود من تقرير التواريخ إنما هو إفادة القوم بحوادث مع تبين أسبابها ونتائجها لتقاس بالحوادث الجارية عليها ، ويكتب باختبارها ، ويثقف العقل ويهذب بمعرفتها ولذلك لا نعول على ذكر الأسباب الدينية في هذه الرواية ونتائج حدوثها ، قدر التعويل على الأسباب والنتائج الدنيوية المجردة عن الاعتقاد المذهبي »(١١)

أمّا مفهوم فرح أنطون لكتابة الرواية التاريخية فقد ظهر في مقدمة روايته « فتح العرب لبيت المقدس » إذ يقول منها :

« ..... والأمر الثاني : الذي أحببنا التنبيه عليه أن الروايات التاريخية لا يقصد بها سرد وقائع التاريخ وأرقامه . فإن طالب هذه الوقائع والأرقام يلتمسها في كتب التاريخ حيث تكون قريبة المنال ليجردها عما ليس منها ، لا في الروايات المطولة التي تشتبك وقائعها الخيالية بها ، ولا يصبر طالب التاريخ على مطالعتها ، وإنما المقصود من الروايات الخيالية (فوق سرد الوقائع والأرقام وتصوير الوسط المراد تصويره وإبراز العواطف والأفكار التي كانت تختلج في هذا الوسط تكميل التاريخ في جوانبه الناقصة .

ونعني هنا « بتكميل التاريخ » أن يضع المؤلف نفسه موضع الأشخاص التاريخيين الذي يتكلم عنهم ، ويعبر عن أفكارهم وآرائهم في المواقف التي يصورها لهم ، والتي لا أثر لهم في التاريخ مستدلاً على ذلك بما يعرفه عنهم .

وهذا الأمر في روايات « ديماس » المشهور كان أهم الأمور ، فكأنه به يحيى الأبطال ويكشف لك خبايا كانت مدفونة في صدورهم . ولقد سلكنا هذا المسلك في الرواية . غير أننا خشينا أن يختلط التاريخ بما ليس هو في شيء منه ، فيضل القارىء ، سيما القليل الإطلاع ، فوضعنا علامات للتفريق بين التاريخ وبين التصنيف والاستدلال .... » الرواية ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

ولعل فرح أنطون هو الروائي الوحيد الذي تمسك بالحقيقة التاريخية من بين أقرانه موضوع هذا البحث ، ولم يورد ما يخالفها إلا بإشارة ترشد القارئ إلى التميز بين الحقيقة والخيال .

ويتضح من أسلوب معروف الأرناؤوط في فهم الرواية التاريخية أنه يلجأ كغيره من الروائيين السابقين إلى توثيق مادته التاريخية بالإشارة إلى المصادر والمراجع من مثل إشارته إلى كتاب السيرة وإلى كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وسيرة عمر بن الخطاب ومعجم البلدان ، والأغاني ، وتاريخ العرب في سورية قبل الإسلام لسديو ، وشعراء النصرانية وغير ذلك من المراجع والمصادر ، وقد حملته عنايته بالتاريخ على أن يعود إليه في كثير من المصادر التي تعرضت لهذه الفترة التي تمتد من فترة ما قبل ظهور الإسلام حتى بعثة الرسول عليه السلام،، وتحدثت عن أحوال العرب في مواطنهم المختلفة في الجزيرة ، والعراق ، والشام ، وعن الأمم ذات الصلة بحياة العرب من مثل الفرس والروم ، وقد خص الأرناؤوط بيزنطة بعنايته الشديدة ، لأنها ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأحداث التي تعالجها رواية سيد قريش بخاصة ...... »(١٢) .

على أن الأرناؤوط كان ، إلى جانب التزامه الحقيقة التاريخية فيما يتصل بالجانب التاريخي ، متحمساً لتاريخ العرب والمسلمين ، مما جعله يزور البلاد التي وصفها في رواياته ، على نحو ما صنع من قبله الروائيون الرومانسيون ، سواء كانت هذه البلاد في الوطن العربي أم خارجه من مثل بيزنطة وأسبانيا ، ليكون على دراية بما يصف ، وحتى توحي له بمشاعر صادقة ، على نحو ما نرى في حديثه الشعري في مقدمة روايته « عمر بن الخطاب » إذ يقول فيها :

« هذه الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكة وبوادي الشام والعراق (لعمر بن الخطاب) .... فلقد طويت من أجلها البر الفسيح ، والبادية الغلفاء حتى وافيت سيناء ، وغيم علي الليل الصارد في هضابها الشم ، ووقفت حيث وقف موسى ، تظللني كما أظلته سحابة فضفاضة ، ثم لم أطل مكثي في سيناء فجفوتها ، ونزلت بوادي سلع ، وشممت عبير أولئك القتلى الذين ماتوا في شباب الإسلام ، وهم يهتفون لسيد قريش وصحبه .... ثم أمعنت في السياحة ، فرأيت العراق ورأيت دجلة والفرات وطفت بالأطلال التي وثق بنيانها بكر وائل ، ثم جئت إل بيت المقدس ، وأظلني المسجد الجامع وذلك المسجد الذي أظل عمر أمير المؤمنين ، ومازلت كذلك حتى فيأني جبل النور في مكة ، وبانت لي الطريق التي جازها محمد وأصحابه إلى العالم ثم إذا هذه الأزهار وهذه الأعشاب التي جمعتها من هنا وهناك تستحيل إلى كتاب جديد اسمه عمر بن الخطاب ... »(١٣) .

وعلى هذا النحو نجد هؤلاء الروائيين قد احتفلوا من الوجهة النظرية بالمادة التاريخية وحاولوا أن يوثقوها على اختلاف ما بينهم ـ بالمصادر والمراجع ، على أن الخلاف يبدو في حماستهم للتاريخ وتأثرهم العاطفي بأحداثه وشخصياته وحضارته عامة ، وهذا ما جعلهم ، عل اختلاف موقفهم الفكري أو العاطفي من التاريخ ، يلجأون إلى اصطناع قصة خيالية أو شبه أسطورية ليديروا عليها

أحداث الرواية ، ليتخلصوا من سطوة الواقعة التاريخية ، وليجدوا حرية واسعة في تحريك الشخصيات بما تمليه عليهم مواقفهم أو عواطفهم أو أمزجتهم الفنية .

فثمة حدث تاريخي معروف في كتب التاريخ تدور من خلاله أو على هامشه قصة غرامية أو اجتماعية مختلقة تبدو للقارئ وكأنها جزء لا يتجزأ من أحداث الفترة التاريخية التي تتناولها الرواية .

وسأحاول فيما يأتي أن أتحدث ، بانفراد ، عن أسلوب كل من الروائيين الأربعة في رواياتهم التاريخية ، من حيث تجسيد موقفهم الفكري ، أو عاطفتهم القومية أو مزاجهم الفني ، وقد قصدت إلى أن أتحدث بإيجاز شديد عن الروائي معروف الأرناؤوط لأنه يمثل امتداد فترة تأثير الرواية العربية الحديثة بالتراث الشعبي في بلاد الشام ، ولعل مسوغ اختياره يعود إلى تميزه بين روائيي النشأة والامتداد في الحماسة للتاريخ وفي التطور الفني نسبياً .(١٤)

الهيام في فتوح الشام لسليم البستاني

تعرضت هذه الرواية لفتوح الشام من خلال قصة غرامية ذات صلة بالأحداث التاريخية وبأحوال المتحاربين ، تجمع بين سلمى العربية وحبيبها سالم ، وأوعسطا الرومية وحبيبها جوليان .

وهؤلاء شخصيات متخيلة ، جعل المؤلف مهمتها التعليق على الأحداث ، وتحليل الشخصيات العربية والرومية بصورة نمطية وربما من حيث هي نماذج .

ومن الطبيعي أن يختار البستاني الروايات التاريخية التي تتفق مع فكرته الأساسية ، وليس غريباً أيضاً أن نراه يفسر الأحداث ، ويحلل الشخصيات وسلوكهم بما يلائم العناصر التي أشرنا إليها . ولعل هذا ما دعاه إلى مناقشة الروايات التاريخية ومحاولة تفنيدها .

فحين أورد البستاني خبر فتح دمشق ، علق على منح أبي عبيدة الأمان لأهل المدينة ، حين أشار إلى مشاجرة نشبت بين خالد وأبي عبيدة نتيجة هذا الأمان فرسم للفاتح.العربي صورة نمطية تركز على الجانب المادي ، على نحو ما نرى في تلهفه على اقتناص الغنائم إذ يقول البستاني معلقاً :

«ومن المؤكد أن وجود الغنائم للعربي كالمغناطيس للفولاذ»(١٥)

وقد ورد هذا الخبر في فتوح الشام في شكل حوار بين أبي عبيدة وخالد ، إذ قال أبو عبيدة

«أيها الأمير قد تم الصلح . فقال خالد وما الصلح ؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم وقد فتحتها بالسيف ، وقد خضبت دماء المسلمين من دمائهم ، وأخذت الأولاد عبيداً وقد نهبت الأموال ، فقال الأمير : إعلم أني ما دخلتها إلا بالصلح . فقال له خالد بن الوليد : إنك لم تزل مغفلاً ، وأنا ما دخلتها إلا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم»(١٦) وانتهى الأمر بقبول الصلح .

وبوسعنا أن نلاحظ من الأخبار أن الخلاف في أمر الصلح لم يقتصر على أمر الغنائم ، بل كان لأسباب تتصل بتقويم عام للعناصر المختلفة ، ومنها الوضع الحربي ، إذ أسف خالد لنجاة الزعيمين هربيس وتوما من القتل ، وفوات الأموال التي حملوها معهم ، مثلما فعل ضرار بن الأزور على نحو ما نرى في حوار عطية بن عامر معه :

« فقلت له : يا ابن الأزور ، مالي أراك كالمتحسر ، أما عند الله أكثر من ذلك ؟

فقال :

والله ما أعني مالاً ، وإنما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا . » (٨٣)

ولعل موقف أبي عبيدة وأمراء الريان يوضح هذا الأمر بصورة أكبر .

ولم يول المؤرخون أمر هذا الخلاف اهتماماً كبيراً فيما بعد ، على نحو ما نرى في تاريخ ابن خلدون ، إذ يقول معقباً على فتح دمشق .

« فاختلف المسلمون قليلاً ، ثم اتفقوا على أمان الروم .... »(١٧)

ولم يقف الأمر عند حدود الروايات التاريخية وتفسيرها ، بل وقف البستاني من بعض الروايات موقف المفند المناقش ، فلم يقبل الروايات التاريخية التي تحدثت عن عدد كل من المسلمين والروم في معركة اليرموك ، ورأى أن عدد المسلمين أكثر مما ذكرت كتب التاريخ العربية بكثير ، إذ يقول معلقاً على روايات المؤرخين العرب :

« ومما يشكل على الإنسان فهمه أن يرى في بعض التواريخ العربية ، ذكر عدد جيش الرومان ذكراً يحمل المطالع على أن يظن أن العرب كانوا قدر ثلثهم ، مع أنهم كانوا أكثر من ثلثيهم فإن جيش العرب الذي كان تحت قيادة خالد بن الوليد في سوريا كان نحو خمسين ألفاً » .(١٨)

ويبدو أن البستاني استند في ذكر هذا الرقم إلى رواية الطبري التي أشارت إلى أن عدد الجنود الذين كانوا تحت قيادة الأمراء الذين توجهوا إلى اليرموك بلغ ستة وأربعين ألفاً .(١٩)

بيد أن البستاني لم يستند في تقدير نسبة جيش المسلمين إلى جيش الروم إلى رواية تاريخية عربية أو غربية ، إذ لم يذكر المؤرخون الغربيون الذين توافرت بين أيديهم المراجع العربية والغربية فيما أوردوه نحواً من هذا العدد ، إذ يقول « دونر DONNER

وحتى إذا لم تكن أرقام كلا الجانبين مضخمة ، فإن المراجع التاريخية تقدر أن جيش المسلمين كان حوالي ربع الجيش البيزنطي في معركة اليرموك .

ثم يذكر ما أورده المؤرخون من التباين بين عدد كل من الجيشين ، إذ بلغ عدد المسلمين ستة وعشرين ألفاً ، وبلغ عدد البيزنطيين مائتين وأربعين ألفاً .(٢٠)

وينقل عن المصادر القديمة غير العربية أن البيزنطيين تحملوا من الضحايا ما بلغ مائة وخمسين ألفاً في هذه المعركة .(٢١)

ويوشك قارئ الرواية أن يطمئن إلى أن هوى البستاني لم يكن مع العرب ، بل ربما لم يكن مع التحليل الموضوعي للأحداث التاريخية ، فأرجع انتصار العرب إلى خلل معين في الجانب الروماني قد يبدو ، في أغلب الأحيان ، غير مفهوم منطقياً ، إذ جعل هذا الخلل في صورة « عمى » مقدر مثلاً ، فيقول معلقاً على فتح بصرى :

« وبالواقع أنه عندما يريد الله سبحانه وتعالى سقوط أمة يعمي بصرها ، فإنه لو كان الرومان في الشام ذوي حكمة ودراية لما انتظروا وصول العرب إلى القرب من أبواب مدينتهم »(٢٢) .

ونراه من بعد ، يعلق على صنيع الرومان مستغرباً ، دون أن يحلله منطقياً فيكتفي بالقول :

« ومن الأمور التي تدل على تغفل الرومان عدم مبادرتهم إلى الهجوم على العرب من البابين بعد أن سار أكثر الجيش الذي كان عند الباب الشرقي ، ولو انتبهوا إلى ذلك لأضعفوا قوة العرب ، إذ لم نقل إنهم كانوا يقدرون أن يفوزوا برفع الحصر عن مدينتهم »(٢٣) .

وقد أولى البستاني عنصر الخيانة في فتوح الشام أهمية كبيرة ، حتى كادت فكرة الرواية تقوم على أن سبب الفتوح يكمن في خلل ما في الجانب الروماني من مثل الخيانة والغفلة والعمى المقدر ونحو ذلك .

فقد أشار البستاني إلى خيانة في صفوف الرومان أدت إلى فتح بصرى ، إذ يروي أن « رومانوس » قد أسلم فخان مهمته ، وسهل اقتحام بصرى بحيلة ضد الديرجان ، استعان فيها بمائة رجل .(٢٤)

صحيح أن الواقدي أورد خبر إسلام « روماس » بطريق « بصرى » وأن غلمانه سهلوا دخول العرب عبر الأسوار وقتل الديرجان(٢٥) بيد أن عملية الاقتحام لا بد أن تفهم على ضوء الزخم الواضح لحركة الفتوح . إذ يبدو من الروايات التي ذكرتها المراجع أن أهل بصرى كانوا مضطرين إلى قبول الصلح .(٢٦)

وإذا كان البستاني قد أشاد بشجاعة خالد بن الوليد الملقب بسيف الله الذي كانت رايته « والنصر مجتمعين في كل حال ، ولذلك ذكر اسمه في قيادة الجيوش في باب الفوز والفتح .... »(٢٧) فإنه حاول أن يقلل من قيمة العناصر الموضوعية في انتصار المسلمين في معركة اليرموك ، فجعل ضعف الرومان وخيانتهم وانقسامهم على أنفسهم هي التي مهدت للمسلمين أسباب الانتصار . على أن الرومان ، على الرغم من إقرار البستاني بهذه العوامل ، لم يفارقوا صفاتهم ولا سجاياهم ولا تقاليدهم ، فالشجاعة الرومانية ، والأخلاق الرومانية التقليدية النبيلة ظلت على سابق عهدها . ولذا عزا النصر إلى خيانة

قائدهم ويبدو أنه يعني « جرجة » الذي ذكرته المصادر التاريخية . إذ يقول البستاني في هذا الصدد :

« فلما رأوا أنهم لم يكونوا قادرين أن يصمدوا للعرب وجهاً لوجه ، لشجاعتهم وسرعة أفراسهم وخفة حركتهم ، عوّلوا على أن يرسلوا فرقة لتحاول المسير إلى خلف جيش العرب بحيث يبيت في الوسط ، الأسوار أمامه ، وفرقة كبيرة وراءه ، ومن المعلوم أن ذلك كان من أصوب الحركات الحربية ، وربما كان علة فوز عظيم للرومان لولا خيانة قائدهم المعهود الذي كان يحب أوغسطا ، فإنه هو الذي أشار بهذه الحركة الحربية غير أنه كان قد أخبر خالد ابن الوليد قائد العرب بها فاستعد لها .(٢٨)

ولقد أعطى البستاني « الخيانة » دوراً كبيراً إذ يقول في هذه الواقعة :

« أما العرب فلما رأوا انكسار تلك الفرقة تشددوا جداً ، وتيقنوا بالفوز بعد أن كادوا يقطعون الأمل من الحصول عليه ، هذا بدون أن يكونوا يعلمون أن انكسارها إنما كان بالخيانة ».(٢٩)

وتتحدث المصادر العربية عن هذه الواقعة ، فتذكر أن إسلام « جرجة » إنما تم في أثناء المعركة لا قبلها ، إذ لم تكن مرتبة من قبل ، وملخصها كما يأتي :

« ... وخرج جرجة إلى بين الصفين وطلب خالد فخرج إليه فأمّن كل منهما صاحبه ، فقال جرجة يا خالد اصدقني ولا تكذبني ، فإن الحرّ لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل ، هل أنزل الله على نبيكم شيئاً من السماء ، فأعطاكه ، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ، قال : لا ، قال ، ففيم سميت سيف الله ، فقال له : إن الله بعث فينا نبيه ﷺ ، فكنت فيمن كذبه وقاتله ، ثم إنّ الله هداني فتابعته ، فقال : أنت سيف سله الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فقال : فأخبروني إلام تدعوني ، قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، قال : فما منزلة الذي يجيبكم ويدخل فيكم ، قال منزلتنا واحدة ، قال : فهل لكم مثله من الأجر والذخر ، قال : نعم وأفضل لأننا اتَّبعنا نبينا وهو حي ، يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ، وأنتم لم تروا مثلنا ، ولم تسمعوا مثلنا ، فمن دخل بنية وصدق ، كان أفضل منا ، فقلب جرجة ترسه ، ومال مع خالد ، وأسلم وعلَّمه الإسلام ، واغتسل وصلى ركعتين ، ثم خرج مع خالد فقاتل الروم ، وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى الحامية وعليهم عكرمة وعمّه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة :

قاتلت مع النبي ﷺ في كل موطن ، ثم أفر اليوم ، ثم نادى من يبايع على الموت ، فبايعه الحارث ابن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدام فسطاط خالد ، حتى أثخنوا جميعاً جراحاً ، فمنهم من برأ ومنهم من قتل ، وقاتل خالد وجرجة قتالاً شديداً ، فقتل جرجة عند آخر النهار ...(٣٠) ولم يكن « جرجة » هذا قائد البيزنطيين في معركة اليرموك ، بل كان أحد قادتهم ويذكر المؤرخون الغربيون أنه كان على رأس فرقة من الأرمن قوامها اثنا عشر ألفاً ، وذكروا أن اسمه جرجا أو (جورج)(٣١) .

ونرى البستاني ـ انسجاماً مع تعاطفه مع الرومان ـ يعلي من مبادئهم في هذه الرواية ، فيذكر أن بطرس يرفض قتل الأسيرات المتمردات : « فلما رأى بطرس عملهن قال لقومه : تفرقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهن السيوف ، ولا ينبغي أن يقتل أحدكم واحدة منهن ، بل خذوهن أسيرات(٣٢) ولم يتابع البستاني رواية الواقدي التي تضيف إلى قول بطرس السابق :

« ومن وقع منكم بصاحبتي » أي خولة « فلا ينلها بمكروه » ونعرف من الرواية أن بطرس تخلى عن أخذ « خوله » حين رأى شدة النساء في مقاومته ورجاله ورفضهن أن يؤخذن أسيرات ، إلى أن أسرع إلى نجدتهن ضرار الذي قتل بطرس .(٣٣)

« وتتبدى عاطفة البستاني تجاه الرومان أيضاً ، في إظهار شجاعتهم الخارقة من مثل وصفه لهجوم الشخصية المبتدعة جوليان(٣٤) أو في ما ينسبه إلى المؤرخين فيما يأتي :

« هذا وقد قال المؤرخون العرب ما يدل على أنه لو لم يثب ربيعة من مكانه أسرع من البرق ، ويضرب جرجيس بسيفه ويقتله لفتك جرجيس به . مع أن المعروف أن الغدر في مثل هذه الظروف لم يكن من شأن الرومان ، بعد أن تمدنوا وقبل التنصر وبعده ، ولذلك ربما كان من المرجح أن عدم وقوف ربيعة على عادات الرومان الحربية ومحافظتهم على الزمام ، وما لحظه من غيظ جرجيس عندما بلغ بلغة لم يفهمها ربيعة أنه هو قاتل أخيه حمله على أن يعجل بقتله لدفع عذره .(٣٥)

فلم يقف البستاني عند الرواية التاريخية وإنما فسر موقفه من خلال عاطفته التي وجَّهت كثيراً من الأحداث ، فلقد أشار الواقدي صراحة إلى توقع الغدر من جرجيس على نحو ما ندرك من الرواية الآتية :

« فقال بعض الحجاب إن هذا هو الذي قتل أخاك ، فلما سمع ذلك إزورَّت عيناه وغضب غضباً شديداً ، وهمَّ أن يثب على ربيعة ، ففهم ربيعة ذلك ، فوثب من مكانه أسرع من البرق ، وضرب بيده إلى قائم السيف ، وعاجل جرجيس بضربة فجندله صريعاً قتيلاً ، ووثب على فرسه فركبها ، فأسرعت البطارقة إليه وهو راكب فحمل فيهم .... »(٣٦) . فثمة مقدمات في الرواية التاريخية تقود إلى ما حدث إذ إنَّ من يتتبع السياق التاريخي يلحظ أن الروم أظهروا الغدر غير مرة .(٣٧) وعلى الرغم من أن البستاني أشار إلى أن ظلم الرومان وإساءتهم حكم شعوب امبراطوريتهم عجل بتداعي حكمهم ، فإنه لم يتعمق هذه الفكرة مثلما فعل جورجي زيدان فيما بعد في روايته « أرمانوسة المصرية أو فتح مصر » .

ومهما يكن ، فإن البستاني أفاد من التاريخ وحاول أن يلتزمه فيما يتصل بالأحداث التاريخية في حين تصرف على هواه في الوقائع الغرامية التي ربطها بالحقائق التاريخية ، فنسب إلى الشخصيات الخيالية أحداثاً تاريخية تتفق مع الجو التاريخي العام ، وتخدم الحبكة الروائية ولم تمنعه الحقائق التاريخية من تفسير الأحداث بما يتفق وموقفه الفكري وعاطفته ومزاجه الفني .

أرمانوسة المصرية لجورجي زيدان

وهي الرواية التاريخية الوحيدة التي كتبها جورجي زيدان عن عصر صدر الإسلام ، وقد نشرها بعنوان « أرمانوسة المصرية أو فتح مصر » ضمن روايات تاريخ العرب والإسلام ، وحاول أن يشرح عنوانها ببيان مضمونها : « فيها تفاصيل فتح مصر والاسكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الإسلام (٦٤٠ م) ، مع بسط حال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم وحال العرب والأقباط في ذلك العصر » وقدّم للرواية على عادته بمقدمة تاريخية ، حوت خلاصة تاريخية عن فترة الرواية ومضمونها معاً . وألقت الضوء على حركة الشخصيات التاريخية وعلى الفكرة التاريخية العامة التي تحكم فهم المؤلف وتفسيره ، إذ يقول في هذه المقدمة : « فتح الرومانيون وادي النيل ، وأقاموا به قروناً ظهر في أثنائها الدين المسيحي ، وانتشر في العالم ، ودخل الدّيار المصرية فاعتنقه المصريون ، وهم الأقباط ، ثم اتخذته الدولة الرومانية ديناً لها بدلاً من الوثنية ، وهدمت تماثيلها .

ولكن ما كادت تستقر الأمور حتى حدث نزاع ديني بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرومانية الشرقية ، وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية واشتدّ النزاع حتى تمكنت الضغائن بين الرومانيين وهم الفئة الحاكمة ، وبين الأقباط وهم الشعب المحكوم ، وعرف المذهب الروماني بالملكي ، والمذهب المصري باليعقوبي . فآل ذلك إلى نفور الأقباط من الرومانيين واستبدادهم ، وإلى رغبتهم في التخلص من نيرهم بأيّة وسيلة . وكان الرومانيون يسومون المصريين سوء العذاب ، فلم تفتهم فرصة الإيقاع بهم ، والانتقام منهم .

وفي أوائل القرن السّابع للميلاد ، كان يحكم مصر والٍ يوناني الأصل ، اسمه المقوقس ، حنّا بن قرقت ، وقد كانوا يدعونه بأسماء أخرى ، وكان متشيّعاً لأهلها ومذهبهم وتقاليدهم . وأقام بالإسكندرية شأن الولاة الرومانيين في ذلك العهد ، لأنها كانت عاصمة الديار المصرية ، ومقرّ الإمارة فيها » . ويقول في المقدمة أيضاً : « ولم يكن للأقباط همٌّ في تلك الأيام إلاّ التخلص من الرومانيين والتحدث بفظائع أعمالهم وظلمهم واستبدادهم ، ولكنّهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بعداوتهم ، خوفاً من سخطهم وزيادة الضغط عليهم»(٣٨).

أقام جورجي زيدان بناء روايته التاريخية على الحقائق التي أوردها في المقدمة ، وفصل بين الجانبين التاريخي والغرامي من حيث استلهام التاريخ ، بيد أنه جمع بينهما في سياق الأحداث التاريخية ، فقد جعل الامبراطور الروماني هرقل يخطب أرمانوسة ابنة المقوقس والي الروم على مصر لابنه قسطنطين لما سمع من صفاتها المادية والمعنوية ولما كانت تتمتع به من أخلاق عالية وأدب رفيع ، وجمال نادر ، ومع أن خبراً كهذا ينبغي أن يلقى موضعاً للراحة والسرور في نفس « أرمانوسة » إلاّ أنها تحزن حزناً شديداً ليس عليه مزيد ، وتضطر إلى أن تكشف دخيلة نفسها لمربيتها « بربارة » وتفصح لها عن حبّها

لأركاديوس ابن القائد الروماني « الأعيرج » الذي يحاول جورجي زيدان أن يظهره بمظهر القويّ المقتدر ، الذي يهابه المقوقس ، حتى أن صورة المقوقس في الرواية تظهر وكأنه تابع للأعيرج يهابه ويخشى بطشه . ومنذ اللحظة الأولى في الرواية نكتشف أن علاقة عدائية تحكم الصلة بين المقوقس والأعيرج وابنه أركاديوس ، وتبدو المفارقة في حبّ يجمع بين اثنين تتّقد العداوة في صدري والديهما ، وتتأزم العلاقة بينهما بتقدم الجيوش الإسلامية نحو مصر ، فالمقوقس على تعاطف مع أقباط مصر ، لا يرضى عن إذلالهم وظلمهم ، بل إنّه أصبح بمثابة واحد منهم ، وهو من أجل ذلك يتعاطف مع الفاتح العربي الذي سيخلّص المصريين من ظلم الرومان ولو كانوا في الحقيقة من بني جنسه . وتبدو هذه الصورة واضحة في الرواية ، بل إن « أرمانوسة » على حبّها لابن القائد الروماني تحمل هذا الشعور ، فهي تحب المصريين وتتألّم لما يلحقهم من بطش وأذى وترويع وحرق لرجال الدين وتهديم للكنائس والصوامع ، وربما كانت مربيتها « بربارة » المصرية القبطية رمزاً لهذا التعاطف ، وهي أيضا تكره قسطنطين ابن الامبراطور وتأمل أن ينقذها الفاتح العربي منه بقتله أو احتلال البلاد أو بأية وسيلة أخرى . وتتحرك الأحداث الغرامية إلى جانب الأحداث التاريخية ، فنقرأ عن رسالة موجهة من قسطنطين إلى المقوقس يأمره فيها بأن يأتي بأرمانوسة إلى « بلبيس » لتحمل إليه في القسطنطينية ، وهنا يبدو المجال مواتياً للمغامرات والصدف والأحداث المشوقة التي تتداخل مع سياق الأحداث التاريخية بشكل عام . فتحمل أرمانوسة إلى بلبيس في حين تصل الأخبار إلى أركاديوس الذي يعلن أنه سيدافع عن حبّه حتى الموت ، ويتعقد الأمر حين يأتي رسول أرمانوسة بشائعة تقول إن قسطنطين قتل في معارك فتوح الشام ، وتبدو الحيل في هذه الرواية في صنيع بطريرك حلب يوقنا الذي مال مع العرب ضد الروم حين رأى كفة العرب راجحة ، ولكنه لم يسلم حقاً ، ولم يوال المسلمين ، وكان يطمع في ضمّ « أرمانوسة » إليه ... فبعث أحد أتباعه ليخبر أرمانوسة أنّ عليها أن تتجهز حتى تحمل إلى « قسطنطين » بأمر منه ، في حين كان في معسكر عمرو بن العاص على حدود مصر الجنوبية ، ويتشاور معه في أمر القتال ويذهب بنفسه إلى حيث « أرمانوسة » ليصحبها ، ولم تجدها توسلاتها نفعاً متعللّة بالمرض ، وأجبرها بالقوة على الرحيل معه ، بيد أن الحيلة تنكشف حين قدم رجال العرب ليحرروا أرمانوسة من حيلته ، وليولي هو بعد ذلك الفرار ، فكان خلاصها على يد عمرو بن العاص ورجاله . إذ أن عمراً غضب غضباً شديداً حين علم حقيقة موقف حليفه البطريرك . ويتحدث جورجي زيدان عن وقائع فتح مصر من العريش إلى الفرما ، إلى بلبيس إلى عين شمس إلى حصن بابليون ثم عن المعارك الأخرى ، حتى حصار الاسكندرية وما جرى فيها من مناوشات وكرّ وفرّ ثم فتح ومصالحة ، ثم غزوها في عهد قسطنطين على يد الخصي الأرمني (منويل) في عهد الخليفة عثمان ، وليصل بين هذه الأحداث وبين « أركاديوس » الذي أسره العرب وكيف استطاع بقوته أن يحُطم القيود وأن يعود وتحدث عن حيل أرمانوسة فهي التي كانت تمنعه من مواجهة العرب سواء كان ذلك في الحصن أم في الإسكندرية ، إذ أنه لو كان في أرض المعارك لما فرّ أبداً لما يتمتع به من قوة ومروءة وشهامة وللقي الموت عاجلاً

أو آجلاً ، وأشار جورجي زيدان إلى أن الأعيرج اتهم المقوقس بالخيانة لأنه كان على علم باتصاله بالعرب وبعمرو بن العاص ، وهو الذي سهل لهم مهمة فتح مصر ، في حين كان المصريّون يساعدونهم في تأمين المواصلات والتموين . وبيّن غضب هرقل على المقوقس الذي عاد بعد موته والياً مرة أخرى . ويتمكن يحيى النحوي الرومي اليعقوبي من الجمع بين المقوقس وأركاديوس بعد أن أعلمه بحال البلاد تحت حكم الرومان ، وأن المقوقس ما فعل إلا الخير ، فهو يريد تأمين البلاد ولم يقبل أن تتحوّل البلاد عن دينها . وهنا يحلّ الوئام وتنتهي هذه الحياة الحافلة بالعقبات والصعاب بزواج الحبيبين أركاديوس وأرمانوسة .

هذه هي أبرز أحداث الرواية التاريخية والغرامية ، ولم نشأ أن نتحدث عن تفصيلات مختلفة تتصل في معظمها بالجانب الغرامي أو الخيالي من الرواية ، وقد أغفلنا بعض الأحداث التاريخية لأنها سترد في محاولة عرضها على كتب التاريخ لتبيّن موقعها من الحقيقة التاريخية .

وقد يبدو لنا أن جورجي زيدان التزم الحقيقة التاريخية في وصف بطش الرومان وظلمهم واضطهاد الأقباط لإصطناعهم المذهب اليعقوبي ، فقد جعل رئيسة الراهبات وهي شخصية خيالية تعبّر عن هذا المعنى من خلال الحقائق التاريخية بقولها : « وما الوسيلة ، وقد أصبح هذا الجند أبغض إلينا من عدوّ يغتالنا ؟ أما كفانا ما يسوموننا من الخسف والجور وإهانة رجالنا ، وقتل بطاركتنا ، حتى جاءوا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا أماكن العبادة معاقل وحصوناً » . ويلمح على لسانها برغبة الأقباط في أن تدول دولة الرمان : « أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدّير أن يسقط في أيديهم ، ويخرجوا من هذه البلاد على أعقابهم ، فإن أيّة أمة تحكمنا بعدهم أخف وطأة علينا منهم »⁽٣٩⁾ . ويذكر المؤرخون أن حاجزاً قوياً وقف بين المصريين والروم حال بينهم وبين انصهارهم في كتلة واحدة » . بل كان كثيراً ما يثير بينهم الإحن ، ويبعث الخصومات ، ويؤجّج الرّوح القومية أن تخبو أو تذبل ، وذلك هو العقيدة الدينية » .⁽٤٠⁾ ولقد كان طغيان الرومان أشدّ عتوّاً في مصر منه في أرجاء الدولة الإمبراطورية كلّها .⁽٤١⁾ . إذ فرَّ الأساقفة إلى الجبال وساد الرّعب والهلع ، والقتل والتعذيب ، ومطاردة الأقباط والبحث الدؤوب عن أسقفهم المختفي بنيامين .⁽٤٢⁾

ويبدو أن جورجي زيدان يخالف المراجع التاريخية في موقف المقوقس من الأقباط ، فجعله يونانياً امتزجت عواطفه بعواطف الشعب المصري ، حتى أصبح يحقد على الرومان ، ويتعاطف مع هموم المصريين ، ويرى رأيهم في المعتقد ، المتمثل في المذهب اليعقوبي ، وقد اختلف الدارسون في تحليل شخصيته فعدّه بعضهم من الطامعين « وهم جماعة ثالثة من الروم تتميز كذلك خلال حركة الفتح بموقف خاص غير موقف المقاومة وغير موقف المسالمة . وتلك هي الجماعة التي خالطها الإيمان بأنّ الامبراطورية البيزنطية لن تستطيع أن تقف طويلاً أمام هذه الدفقة المتدفقة من الجزيرة العربية .. أو هي على الأقل لن تستطيع أن تُبقي على صلاتها بمصر ، منذ أن استطاع المسلمون أن يقطعوا ما بينها

وبين مصر حين استولوا على سورية ، ففصلوا رأس الامبراطورية عن أطرافها .. ولذلك لن تستطيع هذه الأطراف على ذلك صبراً ، ولن يستطيع البحر أن يجمع شملها ، فسيجترئ العرب على البحر ، وسيقبلون عليه ، وسيحولون بينه وبين أن يكون طريقاً للامبراطورية ، وسيفصمون كل العرى بين الاسكندرية والقسطنطينية ... وليس في وسع مصر أن تقاوم كذلك ، وليس في وسعها أن تنحاز إلى هذا الدّين الجديد .. فليس هناك إلا أن تداري هذه الجماعة الإسلامية بالجزية ، وأن تدرأ عنها الحرب بالصلح ، فالصلح وحده كفيل أن يحفظ عليها بقاءها وأنفسها وأموالها وذراريها »(٤٣)وقد غالى بعض المؤرخين الغربيين في وصف المقوقس حين حملوه جريرة سوء العلاقات الحاد بين المصريين والرومان . ففي حين جعل جورجي زيدان المقوقس حليفاً للأقباط ، ائتمر معهم على تسليم مصر للمسلمين أو التمهيد لهم بذلك ، تخلّصاً من عسف الرومان ، نجد بتلر يكاد يخلّص هرقل من التبعة ويضعها على عاتق المقوقس ، ويرى أن هرقل قام بمصيبة حين اختار المقوقس (قيرس) ذلك العبقري السيء الذي لم يقتصر عمله على تحطيم آمال الامبراطور في الوحدة الدينية في مصر ، وإنما تعدّى ذلك بأن جعل من نفسه رمزاً للرعب والكراهية تجاه الأقباط مدة عشرة سنين ، بعد سحق عقيدة القبط الدينية بأقصى ما يستطيع من الظلم والاضطهاد ، إذ جعل ولاء القبط للحكم الروماني مستحيلاً . ويقول عنه : إنّه الطاغية الذي سلّم البلاد واستسلم للعدو في اللحظة الحرجة ، لقد كان رجلاً سيء السمعة عرف فيما بعد في تاريخ المصريين بالمقوقس .(٤٤)

وتتفق الروايات العربية والغربية على أن « المقوقس » لم يكن عنيفاً في الرد على العرب ، بل كان يخشاهم ويتودّد إليهم ، غير أن الروايات العربية خاصّة لا تشير إلى مساعدة العرب أو التواطؤ معهم ، بل إنه كان يخشى أن تقع مصر في أيديهم ذات يوم . ولعل جورجي زيدان ، اتساقاً مع بناء روايته الخيالي في اصطناعه حباً بين ابنة المقوقس وأركاديوس ، أراد أن يضمن خاتمة سعيدة تتسّق معها الأحداث التاريخية ، فاختار أن يقف والدها موقفاً موالياً للعرب . ويبدو أن موقف المقوقس كان موقف المدرك لواقعه لا موقف المتعاطف . فقد تمّت المناوشات وكانت الغلبة للمسلمين ، يذكر البلاذري : « أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الرّوم من أراد ، ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر سمّاه ، وأن يفرض على القبط دينارين ، فبلغ ذلك ملك الروم فتسخّطه وبعث الجيوش ، فأغلقوا باب الاسكندرية ، وآذنو عمراً بالحرب فخرج إليه المقوقس ، فقال : أسألك ثلاثاً أن تبذل للروم مثل الذي بذلت لي ، فإنهم قد استغشوني ، وأن لا تنقض القبط ، فإن النقض لم يأت من قبلهم ، وأن متّ فمر بدفني في كنيسة بالإسكندرية ذكرها ، فقال عمرو : هذه أهونهن ... وكتب عمرو بفتح الاسكندرية إلى عمر » أما بعد فإن الله فتح علينا الاسكندرية عنوة قسراً بغير عهد ولا عقد ، وهي كلّها صلح في قول يزيد بن أبي حبيب(٤٥) ويبدو أن جورجي زيدان استوحى موقفه من الروايات التي تشير إلى موقف الملاينة كما نجد في رواية ابن عبد الحكم عمّا تمّ بشأن الصلح على غير إرادة قومه ، وعلى رفض من هرقل فيما بعد ، إذ يقول ابن عبد الحكم إنّ المقوقس قال لقومه :

« أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ، ولئن لم تجيبوهم إليها طائعين لتجيبنّهم إلى ما هو أعظم منها كارهين فقالوا وأيّ خصلة نجيب إليها ؟ قال إذن أخبركم : أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به ، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقوموا عليهم ، ولن تصبروا صبرهم ، ولا بدّ من الثالثة ، قالوا فنكون لهم عبيداً أبداً ؟ قال نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم ، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم ، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم ، وتكونوا عبيداً تباعون وتمزّقون في البلاد مستعبدين أنتم وذراريكم »(٤٦) .

وتشير المصادر التاريخية إلى أنّه لم يسلم إذ إنّ الرسول عليه السلام كتب إليه « يدعوه إلى الإسلام فلم يسلم »(٤٧) وقد ذكر ابن خلدون ما أورده جورجي زيدان من أن « عمرو بن العاص » أعطى عهداً للمصريين .(٤٨)

وركّز جورجي زيدان على بيان ظلم الرومان واضطهادهم بينما تبين حسن معاملة العرب لشعوب البلدان المفتوحة ، ممّا جعلهم يتألفون قلوبهم ، ويحصلون على مساعدتهم بل على حبّهم أحياناً .(٤٩)

ولقد أورد الدكتور شكري فيصل روايات عن المؤرخين المسلمين تشير إلى معاونة القبط للفاتح العربي إذ يقول : « يسوق ابن عبد الحكم في كتابه طائفة من الروايات عن مساعدة القبط في مراحل مختلفة من مراحل الفتح وعن طرق مختلفة من طرق الرواة : فهو يتحدث عن هذه المساعدة في الفرما : « فيقال إنّ القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا » وهو يتحدث عنها بعد حصار بابليون : « وصارت لهم القبط أعواناً » ثم هو يتحدث عنها حين خرج عمرو يضرب في ريف مصر ، ويتجه إلى الاسكندرية « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطريق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت القبط لهم أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم » وهو يتحدث عنها أخيراً في حصار الاسكندرية بعد الكريون : « فنزل المسلمون ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة »(٥٠) .

ويبدو أن جورجي زيدان وقف طويلاً عند هذه الروايات التي ذكرها ابن الحكم ورأى فيها مجالاً لحركته الروائية ، وقد ربط بين موقف المصريين وما حدث في بلاد الشام ، إذ يقول على لسان إحدى شخصيات الرواية : « وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثاً أن العرب بعد أن فتحوا الشام أمنوا النصارى على أموالهم وأعراضهم ، وأباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم أحد في ذلك ، أليسوا إذن خيراً من الرّومان » ويسوق أيضاً طائفة من المعلومات التاريخية حول عسف الرومان »(٥١) ولعلّ فيما أورده زيدان إشارة إلى كتاب عمر بالأمان إلى أهالي القدس وهذا نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، إنهم آمنون على دمائهم وأولادهم ونسائهم ، وجميع كنائسهم لا تسكن ولا تهدم »(٥٢) .

وقد حاول زيدان أن يلتزم وقائع التاريخ في تسلسل مراحل الفتح ، وحاول أن يربط بين هذه

الوقائع والجانب الخيالي من الرواية فنراه يبدأ بمقدمة تاريخية ثم يتحدث عن « أرمانوسة بنت المقوقس » و « أركاديوس » و « المسيحيون ومظالم الرومان » و « الاحتفال بضحية النيل »(٥٣) و « أرمانوسة في بلبيس » و « يوقنا وأرمانوسة » و « أركاديوس يبحث عن أرمانوسة » و « لقاء الحبيبين » ، ويعقد بعض العنوانات التاريخية من مثل « عمرو بن العاص » و « فتح الحصن » و « عقد الصلح » و « فسطاط عمرو » و « فتح الاسكندرية » . ولقد أورد الواقدي روايات تاريخية حول أرمانوسة بنت المقوقس وموقف يوقنا منها إذ أنه دبر حيلة لحملها من منزلها في بلبيس زاعماً أنه سيحملها إلى زوجها قسطنطين (فلسطين) في القسطنطينية بناء على أوامره ويورد بعض الأخبار عن مصيره مطابقاً لما جاء في الرواية التاريخية غير أن يشكك في إسلام يوقنا بطريرك حلب السابق وأخلاقه ، ويصوره شريراً منافقاً لا تنطبق صورته بأي مقياس على صورته عند الواقدي فهو عنده مسلم عميق الإيمان جاهد مخلصاً دفاعاً عن عقيدته ، ولم يدبر هذه الحيلة لمطمع مادي أو لنزوة رخيصة . وتصور الرواية التاريخية إطلاق سراح أرمانوسة إكراماً لوالدها .(٥٤)

وقد مزج زيدان بين الجانبين الغرامي (الخيالي) والتاريخي في هذه العنوانات ، وحاول أن يحوّر ما وسعته الحيلة على ألاّ يجور كثيراً على الحقيقة التاريخية ، فأثبت مثلاً كتاب المقوقس إلى عمرو بن العاص ،(٥٥) ويبدو أن مضمونه موضوع ، كما أنه نسب رسالة الرسول عليه السلام التي أرسلها إلى هرقل إلى المقوقس مع أن الرسول عليه السلام بعث برسالة معروفة إلى المقوقس بيد أن تسلسل كما أشرنا بالفتوحات على نحو يطابق ما روته كتب التاريخ من الفرما وبلبيس وعين شمس وحصن بابليون فالتوجه إلى الاسكندرية مع اختلافات يسيرة .

وضمّن روايته معلومات تاريخية متناثرة منها ما يتّصل بالتاريخ عامة ومنها ما يتصل بفتح العرب لمصر خاصة . فأورد مثلاً معلومات كثيرة عن عادات المصريين وصناعاتهم ودياناتهم وآثارهم ، من مثل غزو الفرس لمصر ومحاربة هرقل لهم ،(٥٦) وعبادة الصنّم سرابيس ،(٥٧) والحديث عن الطبيعة الواحدة والطبيعتين ،(٥٨) ومناطحة الثيران في مصر ،(٥٩) وطريقة كل من العرب والمصريين في الكتابة ، ومواد الكتابة ،(٦٠) وقصة جامع عمرو والفسطاط ،(٦١) إلى غير ذلك من المعلومات التاريخية المتناثرة .

وأما فيما يتصل بالشخصيات العربية في أحداث فتح مصر ، فقد تحدث عن عمرو بن العاص وذكر قصة إسلامه ، وهي كما رواها جورجي زيدان تكاد تحتفظ بصورتها الحرفية عند مقابلتها بما روى في كتب السيرة النبوية والتاريخ .(٦٢) وكذلك ما ورد من حديث عمرو بن العاص في الرواية حول صفات الرسول عليه السلام .(٦٣) ومن مثل حديثه عن عرفجة بن مازن وقصته مع عمر بن الخطاب حول زهد الرسول ونعيم كسرى وقيصر .(٦٤) وقد أوردت بعض الكتب التاريخية ما ذكره زيدان عن قصة سفر عمرو بن العاص مع شمّاس من الاسكندرية أنقذ عمرو حياته في القدس قبل الإسلام ،(٦٥) ووردت كذلك قصة بنيامين الأسقف ، واختفائه تلبية لحلم دعاه إلى الاختفاء .(٦٦)

كما ذكرت كتب التاريخ نبذة عن حياة ليحيى النحوي الروماني اليعقوبي المذهب الذي اضطهد لعقيدته(٦٧) وقد ضمت الرواية أحاديث وأقوالاً عن صلات القربى والأقباط ، وعن جرأة عبادة بن الصامت والزبير ابن العوّام ، وأشار زيدان إلى غزو منويل الأرمني « الخصيّ » للاسكندرية في عهد عثمان ابن عفان وما عاثه من تخريب وتدمير ، وإعادة عمرو بن العاص بعد أن ولّي عليها عبد الله ابن أبي السرح. ومهما يكن فإن جورجي زيدان أراد أن يقدّم المادة التاريخية حسب ورودها في المراجع التاريخية مع إتاحة الفرصة لترجيح ما يرى ترجيحه ، وللتعاطف مع ما يمكن أن يراه موافقاً لعواطفه ، ثم التوفيق بين الحقيقة التاريخية والحكاية الخيالية . ولعلّ أهم ثغرة عملت على توسيع الشقة بين الحقيقة والخيال هي إقحام قصة « المقوقس » وبيان خطته في تسليم مصر للعرب منذ اللحظة الأولى .

فتح العرب لبيت المقدس لفرح أنطون

يقدم المؤلف لروايته بتعريف موجز يقول فيه :

« وهي رواية تاريخية فلسفية اجتماعية جيدة تتضمن زحف العرب إلى بلاد الشام حين ظهور الإسلام ، وحصارهم مدينة القدس (بيت المقدس) العاصمة الدينية الكبرى للمسيحيين يومئذ ، وسفر الخليفة عمر بن الخطاب من بلاد العرب إليها لفتحها بطلب البطريك صفرونيوس . إقامة المسجد الأقصى فيها على أنقاض هيكل سليمان القديم هيكل الإسرائيليين ، ويتخلل ذلك كلام عن أحوال اليهود والمسلمين والمسيحيين يومئذ ، والأفكار الدينية والسياسية التي كانت تختلج في نفوسهم ، والأسباب السياسية والاجتماعية والدينية التي أضعفت سلطة الرّوم في بيزنطة (القسطنطينية) فكانت سبباً في سقوطهم وزوال ملكهم وقيام الأمم التي تليهم » .

بنت هذه الرواية حبكتها على قصة غرامية بطلاها « إيليا » الفتى النّاصري الذي يقيم في إيلياء ، و « أستير » ، اليهودية التي كانت بصحبة والدها في بيت لحم عشية أعياد الميلاد ، وتبدأ أحداث الرواية حين ذاع في الناس أن ثمّة يهوداً في المدينة المقدسة ، فيما حاول « إيليا » أن يشكك في صحة هذه الإشاعة ، فكاد الرّعاع أن يقتلوه لولا أن أنقذه « أرميا » من بين أيديهم . كانت أستير وأبوها يتهامسان وقد ظهرت عليهما أمارات الخوف والفزع فيما كانت الدّهماء تقترب منهما ، ممّا سهّل الشكّ فيهما فاقتيادهما وموكب البطريرك يشقّ شوارع المدينة .

ويجدّ « إيليا » في تخليص « أستير » ووالدها من قبضة الرّعاع فيحدّث البطريرك في شأنهما ، وفيما يحاول جهده أن تنكر « أستير » أنها يهودية ، تصرّ على أنها ليست « مسيحية » ، فلا يجد أمامه إلا الزعم بأنها « وثنية » ، أما والدها فيتخلص من المأزق المرعب بالاعتراف بأنه نصراني فيطلق سراحه . وترسل « أستير » إلى الدّير لتتخلص من وثنيتها وتعمّد إنفاذاً لرغبة الدّهماء ، فيما

ينمو اهتمام « إيليا » بها إلى حبّ جارف ، إذ إنه كان رأى فتاة تشبهها قبل عشر سنوات وقع في حبها عند أوّل نظرة ثم ضاعت في الزحام .

يكيد لإيليا حتى يخلو له المجال . إذ إنه بعد أن سهّل « إيليا » لأستير سبيل الفرار من الدّير في ليلة ماطرة ، وآواها في مزرعة الشيخ سليمان ، فرّت أستير برفقة « آرميا » من المزرعة حين أدركت صعوبة الطريق الذي تسلكه وحبيبها « إيليا » . بيد أن إيليا وأستير يقعان ـ أثناء فرارهما ـ أسيرين في أيدي العرب المحاصرين لبيت المقدس ممّا يمهدّ الطريق إلى أن يتنافس على أستير عدد من أبطال المحاربين ، وفيما كان إيليا يجدّ في البحث عن « أستير » يقع أسيراً في أيدي العرب فيحتجز في خيمة عمرو بن معد يكرب ، فيعلم « يوسف » والد أستير بأسره فيحزم أمره على إسداء خدمة لإيليا شكراً على صنيعه واعترافاً بالجميل فيفاتح أبا عبيدة في أمره فيأمر بإطلاق سراحه . إلا أن « إيليا » يعرف ، مصادفة ، أن « يوسف » والد « أستير » عين للعرب ، حين ذكر لأبي عبيدة أمر « الرقّ » ففهم أن ثمة مهمة شائنة يقوم بها يوسف ضد مواطني إيليا وضد الرّومان ، فيعزف عن حبّ « أستير » حميّة ووطنية وفي القلب جراح . وتتّجه الأحداث بعد هذا نحو حلول مثاليّة غير واقعية ، حين يتخذ « إيليا » موقفاً بالغ الشدة بصورة مفاجئة وغير مسوّغة ، بعد أن اتخذ موقفاً يخالف تقاليد قومه ومعتقدهم ، فيعرض عنها إعراضاً لا أثر فيه لتردّد أو معاودة ، فتمرض « أستير » بعد أن خرجت ووالدها من معسكر العرب لهذا الإعراض ، فيشكو والدها ما حلّ بابنته إلى البطريرك الذي ينجح في لقاء « إيليا » بـ « أستير » بعد فوات الأوان ، إذ يستفحل المرض ، تموت أستير ميتة رومانسية . مما يمهد لأحداث أخرى يموت خلالها إيليا . ويبدو أن المؤلف قد توسّل بالموت ليضفي جواً من الفجائع على جوّ الرواية ، فيموت الشيخ سليمان مثلما مات من قبله الرجل الصالح الراهب « ميخائيل » الذي قضى حياته في خدمة الناس وتلقّى من أجلهم ظلم الهيئة الاكليريكية إهاناتها ومؤامراتها إذ كان يخدم فقراء الناس ويشهّر بالأغنياء مما أدّى إلى الإيقاع به وطرده ، ثم التشهير به وتلويث سمعته فزعموا أنه يثري من وراء ما يجمع من أموال الأغنياء ، فصدّق الناس ما قيل ، فتحاشاه من كان يخدمهم . وهو الذي قصّ فيما بعد على عمر ابن الخطاب قصة بيزنطة والرّوم من منظور تاريخي حضاري ، وجعله المؤلف مثار إعجاب الخليفة .

وتترافق مع هذه الأحداث العاطفية ـ على نحو ما نرى ـ الأحداث التاريخية الاجتماعية التي هدف الكاتب منها إلى تقديم الفوائد المترتبة عليها ، ففي روايته لقصة الراهب القدّيس « ميخائيل » صورة لفساد الهيئة الاكليريكية ممثلة بزعمائها الذين ضاقوا بكلّ فكر يقود إلى عمل منتج ، وأبدوا تعضباً ذميماً ، فيما جرت الأحداث لتصوّر فساد الحاكم وكراهية البطريرك وأهل القدس للحكم الروماني وللأمبراطور « هرقل » خاصة .

وتشير القصة الاجتماعية التي جرت في سياق الأحداث التاريخية إلى بعض الوقائع التاريخية من

مثل حصار العرب لبيت المقدس وتمركزهم خلف أسوارها ، وطلب البطريرك « صفرونيوس » من العرب أن يحضر الخليفة عمر بن الخطاب نفسه لإجراء عهد التسليم بناءً على نصيحة عمرو بن معد يكرب إلى « إيليا » كما تزعم الرواية .

وتتحدث عن السرّ التاريخي الذي أسلفنا الإشارة إليه وهو « الرقّ السرّي » فكان بمثابة حبكة فصمت العلاقة بين إيليا وأستير .

وتوحي قصة « الرقّ السرّي » بوجود علاقة تواطؤ بين البطريرك والمسلمين في مواجهة الامبراطور الروماني هرقل . وجعلت الرواية « إيليا » يرافق عمر بن الخطاب في زيارته للأماكن المقدّسة في « بيت المقدس » و « بيت لحم » . ووصف المؤلف حصار العرب لبيت المقدس وطول أمده ، مثلما فصّل في وصف بطولة المدافعين وقوة شكيمتهم ، وفي عناد المحاصرين وإصرارهم على دخول بيت المقدس ، وصوّر تشوّقهم لرؤيتها .

ويتّضح من سياق الأحداث ومن الفكرة الأساسية في الرواية أنّها تقوم على المغامرة والمخاطرة وافتعال الحبكة وبروز الفكرة بصورة تكاد تحجب العفويّة القصصية والمتعة الفنية . مع أن ثمة مواطن تستخدم أسلوباً يقرن الفكرة بالعاطفة فيرقّ ويسمح في بعض الفصول حين يخاطب المدينة المقدسة ، مثلاً ، من خلال ما اصطلح عليها من حوادث وما فجعها من نائبات .

وإذا اهتمّ فرح أنطون بتوضيح العناصر التاريخية في الرواية بصورة مباشرة فإنه ترك بعض الأحداث الروائية التي جاءت في السياق التاريخي لتوحي بتاريخيّتها ممّا سنتطرق إليه حين نعرض الحدث التاريخي على المصادر التاريخية .

ولعل من أبرز الأحداث التاريخية التي أشارت إليها الرواية في فتح بيت المقدس هو موقف البطريرك من الحاكم الروماني من ناحية ومن الفاتح المسلم من ناحية أخرى . فالرواية تصوّر كراهية البطريرك للحكم الرّوماني الذي يعدّ دخيلاً ، ولا يرحّب بالفاتحين المسلمين ، فيتجهّم حين يقرأ نبأ الحصار . فعلى الرغم من أن المؤلف ينصف العرب حين يوازن بينهم وبين الرّومان فإنه يعدّ هذا الفتح حلقة في سلسلة التنافس على السلطة كما نرى فيما يأتي : « إن رمال قفار العرب قد تحركت يا ابنة صهيون . زحفت نحوك قاصدة الدنيا كلها . فأوسعوا وأوسعوا المكان في الأرض لأمة عظيمة ومدنيّة جديدة ، إن الدنيا كلها تتمخّض الآن بدين جديد وسلطنة جديدة . إن أبناء إسماعيل الأقوياء خرجوا من قفارهم الجدباء لملاقاة أبناء إسحاق الظرفاء . ولكن يا للأخوة يا لحرمة النّسب ، إن ملاقاتهم كانت للإقتتال على سلطنة الأرض ، كأن هذه الدنيا الواسعة تضيق عن أخوين كريمين . فسدّوا آذانكم يا أيها البشر فإن أرضكم ستصير ميداناً واسعاً للحروب والمجازر المختلفة (الرواية ص ١٥٥) .

ونلاحظ أنه كان يشير إلى تواريخ بعض الأحداث في الحواشي من مثل انكسار فيودوروس أمام المسلمين في أجنادين سنة ٦٣٤ للميلاد (ص ١٥٨) ، ودخول الفرس بيت المقدس وأخذ الصليب

من الجلجلة سنة ٦١٤ للميلاد (ص ١٥٩) . وكان يتوخى أن يثبت أصل المتن حرفياً عند نقل بعض المعلومات التاريخية التي يوردها في متن الرواية . فيورد مثلاً : « وقف (أي هرقل) على نشز في حدود سوريا مودّعاً وقال : السلام عليك يا سوريا لا اجتماع بعده »

إذ يقول في الهامش : « رواه ابن الأثير وأثبته درابيرون . وهذه عبارة ابن الأثير بالحرف (السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك روميّ إلاّ خائفاً حتى يولد الولد المشئوم) (ص ١٥٩) .

وقد جاء عن ابن الأثير قوله : « وسار هرقل فنزل بشمشاط ثم أدرب منها نحو القسطنطينية فلما أراد المسير منها علا على نشز ثم التفت إلى الشام فقال : السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك روميّ أبداً إلاّ خائفاً حتى يولد المشئوم ويا ليته لا يولد فما أحلى فعله وأمرّ فتنته على الروم »[٦٨] وفي حديثه عن أرزة في جبل الزيتون يورد تفسيراً في الهامش قائلاً : « كان على جبل الزيتون في زمن مملكة إسرائيل أرزة وقد حفظ الإسرائيليون تذكارها بعد تشتتهم » (١٧٤) .

وظل هذا دأبه في توثيق الأخبار التي يرويها بالروايات التاريخية في الأغلب الأعم من مثل حديثه عن مخالفة المصريين لمذهب الإمبراطورية ، فأشار إلى أن الأقباط يئنّون مثل أبناء بيت المقدس تحت نير الرومان فيقول : « وقد اغتنموا فرصة القول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة للانفصال عن الكرسي السكندري والقسطنطيني » والمقوقس كبيرهم وواليهم يجامل العرب نكاية بالإمبراطورية » ثم يورد في الهامش « لما كاتب صاحب الشريعة الإسلامية قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس والحرث بن أبي شمّر الغسّاني يدعوهم إلى الإسلام أجابه المقوقس صاحب مصر جواباً لطيفاً وأهدى إليه أربع جوار منهنّ مارية التي ولدت للنبيّ ولداً سماه إبراهيم » « ابن الأثير » (الرواية ص ١٧٦) وتكاد الرواية تكون حرفية عند ابن الأثير الذي يقول « فأما المقوقس فإنّه قبل كتاب النبي ﷺ وأهدى إليه أربع جوار منهنّ مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ »[٦٩] .

وأشار إلى معاونة العرب المتنصّرة من غسّان للرّوم على المسلمين والفرس في حروبهم معهم (الرواية ص ١٨٠) ، وأورد خبر ارتداد بعض العرب بعد وفاة الرسول عليه السلام وتسيير جيش أسامة ، ويروى فيه أن العرب لما رأت مسير الجيش للشّام هابوا الخلافة وقالوا « لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هذا الجيش . فكفّوا عن كثير ممّا كانوا يريدون أن يفعلوه » (ص ١٨٠) وقد ورد هذا النص حرفياً عند ابن الأثير[٧٠] الذي أشار إليه في الهامش .

وثمة مرويّات عن جيش المسلمين المتجه لقتال الفرس في العراق ، والروم في الشام وعن قيادة خالد بن الوليد وفتوحاته في العراق والشام ثم عزله واستخلاف أبي عبيدة (الرواية ص ١٨١) . فقد ترك المؤلف أحد متنصرة الغسانيين يحدّث البطريرك صفرونيوس عن فتوح بلاد الشّام في سياقها

الزمني . فحاول في الهامش أن يوضّح موقفه من الروايات التاريخية ، ومن المصادر التي ينقل عنها فهو يقول في هذا الصدد على لسان الرسول الغسّاني :

« بعد أن فتح أبو عبيدة دمشق ، وأقام فيها شهراً يتمتع فيها مع جنده بمظاهرها الجميلة ويستريح بعد عناء القتال جمع إليه أمراء المسلمين وقال لهم : « أشيروا عليّ بما أصنع وأين أتوجّه » فاتّفق رأي المسلمين إمّا إلى قيسارية (قيصرية) وإما إلى بيت المقدس . فقال معاذ بن جبل « اكتب إلى أمير المؤمنين فحيث أمرك فسر واستعن بالله فقال : « أصبت الرأي يا معاذ » إلى آخر الرواية (الرواية ص ١٨١) فيشير إلى اتفاق المسلمين بالتوجه إلى قيسارية أو إلى بيت المقدس مرجحاً في الهامش إحدى الروايات : « لعلّ الأصح إما حمص وحماة وأنطاكية وإما فلسطين وبيت المقدس ، لأن قيسارية تابعة لفلسطين » . ويشير أيضاً إلى رأيه في المصدر نفسه فيقول : « نعتمد هنا على الواقدي في ما كتبه عن فتح بيت المقدس وإن كان تاريخه يكاد يكون في أكثر أقسامه قصّة عنترية . والتناقض في الروايات والتفاصيل ظاهر بينه وبين باقي المؤرخين وفيما بين هؤلاء أيضاً . وإنما فضلناه عليهم لأنه أكثر تفصيلاً . والعبارات الموضوعية في هذا الفصل بين قوسين أو ضمتين دون ذكر مصدرها هي له » .

وحين يذكر خبر أمر الخليفة أبا عبيدة أن يسير من الجابية إلى بيت المقدس وأن أبا عبيدة عقد ليزيد بن أبي سفيان وأمره أن يزحف إلى بيت المقدس وفلسطين يعلق في الهامش : « حذفنا هنا اسم خالد بن الوليد لأن الواقدي وغيره يقولون إنه بقي مع أبي عبيدة ولم يرحل في مقدّمة الجيش » . (الرواية ص ١٨٢) بل كان يشير في بعض الروايات إلى إسنادها على نحو ما ذكر عن حقيقة المدافعين عن بيت المقدس ومعنوياتهم إذ جاء في الرواية « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدّة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم إلاّ وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس ، فلا يكلّمنا منهم أحد ، ولا ينطقون غير أنّ حارسهم شديد وعدّتهم كاملة » (الرواية ص ١٨٣) إذ جاء في هامش الرواية « رواه الواقدي عن المسيّب بن نجيّة الفزاري » .

وكان فرح أنطون حين يشير إلى رواية تاريخية دون إرشاد إلى صحتها يعمد إلى شرحها في الهامش من مثل نقله على لسان البطريرك صفر ونيوس قوله : « إن العرب ليسوا كالفرس بل هم يعبدون الله مثلنا ، ولذلك يحترمون المنقطعين إليه تعالى ، فلا تخافوا منهم على الدّير » فأحال إلى وصية أبي بكر لجيش أسامة بن زيد في الكامل لابن الأثير ، فنقل النص (الرواية ص ١٨٣) نقلاً حرفياً عن ابن الأثير .(٧١)

ونقل المؤلف المعلومات التاريخية حول حصار بيت المقدس والمفاوضات المبدئية عن الواقدي موضحاً ذلك في الهامش : « كل ما وضع في هذا الفصل بين قوسين وراءها نجمة » فهو نصّ حرفي للواقدي . غير أنّه كان ينقل معلومات روتها كتب الأدب والتاريخ على ألسنة شخصيات لم تروها ، حين نسب وصف الصخرة المشرفة إلى خولة بنت الأزور (ص ٢٤٤) في حين استقى المادة من

« العقد الفريد » .(٧٢) وقام بنقده على عادته في نقد المصادر ، إذ يقول « وغنيّ عن البيان أنّ هذه الأقوال من آراء العوام وإن وردت في العقد » (الرواية ص ٢٤٤) وما يفتأ يذكر الروايات بإسنادها فيقف عندها مستغرباً من مثل إشارته إلى قراءة يزيد بن أبي سفيان الآية الكريمة ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا ﴾ إذ يقول معلّقاً : « ومن غرائب الاتفاق أن باقي أمراء الجند قرأوا في جندهم هذه الآية أيضاً فكأنهم كانوا على ميعاد واحد » (الرواية ص ٢٤٥) ونجده يحرص على نقد الروايات من مثل استبعاده لما يروى عن توهم مقدم عمر بن الخطاب وأثره في كل من المحاصرين والمسلمين إذ يقول المؤلف : « الرواية التي رواها الواقدي هنا مخالفة للعقل بعيدة التصديق ، ولذلك لم نعبأ بها ، وأوّلناها هنا هذا التأويل » (ص ٢٤٦) ويشير إلى التصحيف في الروايات على نحو ما نجد في حديثه عن كنيسة القيامة إذ يقول : « في تاريخ الواقدي تارة الغمامة ، وطوراً القمامة ، وآونة الفخامة ، وهو خطأ في النسخ ظاهر ... » (ص ٢٤٥).

وظلّ المؤلف ينبّه ـ بين الحين والآخر ـ على قيمة النصّ التاريخية من مثل إيراده لصورة تعفّف المسلمين حين دخلوا بين المقدس فلم يمدّ أحدهم يداً إلى متاع ، وذكر تعليق البطريرك « لا يقوى أحد على هؤلاء ماداموا على ما هم عليه من التزام الحق » (ص ٢٧٣) وجاء في الهامش : « معنى هذه العبارة منسوب في الواقدي لأبي الجعيد ، وهنا نعيد للمرة الثالثة قولنا « إنّ الذي لا يوضع عليه النجمة فليس من التاريخ في شيء إلا إذا نبهنا إليه » .

وإذا كان المؤلف قد صرح بأنه يلتزم أحداث التاريخ ويوثّق معلوماتٍ ، فإنه كان يتصرّف في نقل بعض هذه المعلومات على نحو ما نرى في الخبر الذي نقله عن الواقدي(٧٣) حول قرار فتح القدس فأورد بنيته الأساسية وحوّر في أجزاء أخرى مثل حوار عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفّان (الرواية ص ١٨١ – ١٨٢) وجعل المؤلف بعض الشخصيات التاريخية تقوم بأدوار روائية من مثل حديثه عن غرام عمرو بن معد يكرب الزبيدي بأستير ، مع أنّ عمراً اشترك في فتوح الشام وحصار بيت المقدس إذ يقول المؤلف في هذا الخبر : « وفي الحقيقة أنّها كانت خيمة الفارس المغوار المشهور عمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي ترك بوادي اليمن وجاء في رجاله لنصرة جند الشّام مع مالك بن الأشتر النخعي في أواخر خلافة أبي بكر » (الرواية ص ٢٤٩) وقد أورد في الهامش خبر رسالة أبي بكر إلى خالد التي يعلمه بإرسال المدد وفيهم أبطال اليمن وأبطال مكة » .(٧٤)

ومن مثله جعله خولة بنت الأزور تتحدّث عن الصخرة المشرفة مع أنّها لم تفعل . وهو قد استقى حديثها المزعوم من « العقد الفريد » حيث ورد هذا الحديث ، غير أن ابن عبد ربه لا يذكر صاحبه .

وكان المؤلف يتصرّف في الروايات التاريخية ويحاول أن يوازن بينها عند الاختلاف فحذف رواية الواقدي التي تقول إن أبا عبيدة عند الإعداد لفتح بيت المقدس سيّر خالداً على رأس الجند « فعندها

دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم إليه خمسة آلاف فارس من خيل الزّحف وسرّحه إلى بيت المقدس » .(٧٥)

فأشار فرح أنطون إلى هذه الرواية بقوله : « حذفنا هنا اسم خالد بن الوليد لأنّ الواقدي وغيره يقولون إنه بقي مع أبي عبيدة ولم يرحل في مقدمة الجيش » (الرواية ص ١٨٢) .

وكان يختار ما يرى أنه يخدم غرضه فيجتزئ منه ما يشاء من مثل حديثه عن قوّة حامية بيت المقدس وتميّزها عن غيرها من الحاميات فنقل جزءاً منها بتصرّف عن الواقدي : « ما نزلنا ببلد من بلاد الشام فرأينا أكثر زينة ولا أحسن عدّة من بيت المقدس وما نزلنا بقوم إلا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع وأخذتهم الهيبة إلا أهل بيت المقدس فلا يكلمنا منهم أحد ولا ينطقون ، غير أن حارسهم شديد وعدّتهم كاملة » (الرواية ص ١٨٣) فحذف معظم الخبر وسقط مما اجتزأه بعد « إلا أهل بيت المقدس » « نزلنا بإزائهم ثلاثة أيام » .(٧٦)

أما ما جاء في الرواية عن دور « يوسف » والد « أستير » في فتح القدس فلم يرد في كتب التاريخ ، ولعلّ فرح أنطون أفاد من رواية للبلاذري عن فتح قيسارية في اصطناع هذه الرواية وتوظيفها في الحبكة الروائية إذ يقول البلاذري « وكان سبب فتحها أن يهودياً يقال له يوسف أتى المسلمين ليلاً فدلّهم على طريق في سرداب فيه الماء إلى حقو الرّجل مقابل أن أمّنوه وأهله ، وأنفذ معاوية ذلك ، ودخلها المسلمون في الليل وكبّروا فيها ، فأراد الرّوم أن يهربوا من السرداب ، فوجدوا المسلمين عليه ، وفتح المسلمون الباب فدخل معاوية ومن معه ، وكان بها خلق من العرب ، ... ، ويروي البلاذري أن بعض اليهود كانوا عيوناً للمسلمين إذ أنّ « أبا عبيدة بن الجراح صالح السّامرة بالأردن وفلسطين ، وكانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين ، على جزية رؤوسهم ، وأطعمهم أرضهم » .(٧٧)

ويرى فرح أنطون أنه أدعى إلى الإنصاف والموضوعية أن يستقي مادته التاريخية حول الروم وأمثالهم من المصادر التي كتبها هؤلاء لأن كل قوم أدرى بتاريخهم ، مع أنّ هذه المقولة لا تصحّ دائماً . فقد استقى « الفصل الثاني والعشرين » وهو « حديث سياسي للشيخ سليمان » من تاريخ بيزنطة إذ أورد في الهامش : « كل ما يرد في هذا الفصل على لسان الشيخ ملخّص من تاريخ بيزنطة وإن لم يوضع عنده نجمة » . (الرواية ص ٢٧٧) وينقل في موضع آخر عن كتاب « أسباب عظمة الرومان وأسباب سقوطهم ، (الرواية ص ٢٨٢) ويشير إلى مصدر مونتسيكيو أحياناً من مثل قوله » وقد نقل عن بروكوب المؤرخ اليوناني (ص ٢٨٢) .

وكان يشير إلى الترجمة الحرفية عن مونتسيكيو في الهامش (الرواية/٢٨٥) وكان يتدخل في الهامش ليعلق على ما ينقله حرفياً عن مونتسيكيو فيفسره تفسيراً مختلفاً . (الرواية/٢٨٦) وعلى هذا النحو حاول فرح أنطون أن يلتزم الروايات التاريخية التي أسعفته بها المصادر ، بيد أنه كان حريصاً على الطابع الروائي ، فاهتمامه بفتوح الشام للواقدي تجاوز المادة التاريخية التي أسعفته في صياغة روايته

إلى طبيعة المادة التاريخية التي يغلب عليها طابع القصّة والمغامرة والخيال أحياناً . ولعلّه أشار إلى ذلك بطريقة غير مباشرة (الرواية ٢٤٦ ، ٢٧٢) .

معروف الأرناؤوط ورواياته : سيد قريش ، عمر بن الخطاب ، فاطمة البتول

حين نحاول أن نتأمل هذه الروايات فإننا لا نقع على أحداث تاريخية مباشرة تتصل بهذه الشخصيات اتصالاً مباشراً ، فالأحداث الاجتماعية العاطفية التي تنفلت من قيود التاريخ هي التي تغلب على شخصيات الرواية ، مع أن احتفاله بالتاريخ كان كبيراً ، وكانت حماسته لأحداثه بالغة . فقد أدت حماسته للمادة التاريخية التي يعالجها في رواياته إلى خلق شخصيات لا صلة لها بالحقيقة التاريخية أو إلى التصرّف في ممارسات الشخصيات الكبيرة ، مثلما نجد في شخصية ليلى الساحرة عمة امرئ القيس بن حجر التي تعدّ الشخصية الأولى في الرواية ، وفي شخصيتي ابنتي امرئ القيس « مارية » و « هند » ، وأمام الحقائق التاريخية المستمدة من كتب التاريخ والأدب والسير وغيرها ، لم يستطع الأرناؤوط أن يغيّر في هذه الحقائق تغييراً جوهرياً ، بل حاول ما استطاع أن يوثق معلوماته بالمصادر المختلفة كما أشرنا . ولمّا كانت شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام هي الشخصية الرئيسة في الرواية فإنه لا يمكن الأرناؤوط أن يبدل في مواقفها أو أحداث حياتها ، ولهذا لم يجد في الشخصية الرئيسية « عنوان الرواية » مجالاً لحرية الحركة ، أو التصرّف الواسع ، فحاول أن يأتي بشخصية بديلة تتيح له مثل هذه الحرية ، وهي شخصية « ليلى » الكندية لتقوم بالعنصر الروائي ، فينطلق بخياله دون قيود ، ينتقل في الزمان والمكان دون أن يجد أيّ حرج . فشخصيّات ليلى ومارية وهند وعمرو بن حنظلة من صنع الخيال . وإن كان خلقه لشخصيّة « ليلى » بصورة خاصة متعمّداً ، فقد حاول أن يحقق في هذه الشخصية صلة مأساوية دامية مع القوتين الكبيرتين في ذلك الحين ، وهما دولتا الفرس والروم . وتتمثل تلك الصلة فيما يرويه التاريخ من نزاع بين امرئ القيس والنعمان ابن المنذر حول الدّروع ، وفيما يرويه التاريخ أيضاً عن موت امرئ القيس مسموماً في رحلته إلى بيزنطة . وهذا ما يرمز إلى حقيقة القوتين اللتين تتمثلان في صنيعة الفرس : الملك اللخمي ، وفي زوجة القيصر « ثيودورا » . لقد اغتنم الأرناؤوط مأساة « امرئ القيس » ليختلق شخصية « ليلى » الحرة ، لتتحدث كما تشاء ، ولتتحرك كما تشاء ، ولتنتهي إلى النهاية التي يريدها المؤلف نفسه . وكانت الصلة المأساوية نفسها بين الشاعر والقوتين الكبيرتين هي التي حدّدت موقف « سيد قريش » من هاتين القوتين ، فقد أتى ، والعرب شتى ، رمزاً للوحدة المنشودة . فالتقى بذلك الخطان : خط الشخصية التاريخية المتمثلة في « سيد قريش » وخط الشخصية المختلقة المتمثلة في شخصية « ليلى » الساحرة ، التي كانت بدورها وليدة شخصية تاريخية هي شخصية امرئ القيس .

وقد التزم الأرناؤوط في حديثه عن « سيد قريش » بالحقيقة التاريخية كما ترويها كتب السّيرة

النبوية غير أن معظمها قبل بعثة الرسول ﷺ وتبدو هذه المعلومات مفروضة على الحدث الروائي لإفادة القارئ بمزيد من المعلومات من مثل الحديث عن الفرس وذي قار والشاعر الأعشى وهانئ ابن مسعود وحنظلة ابن ثعلبة ، ونقرأ فيضاً من القصص الجانبية عن المسلمين والكفار ، ويحدثنا أحاديث شتى تقترب من المقالة والبحث التاريخي ، غير أنه ترك لنفسه حرية اختيار الزاوية التي يلتقط منها الأحداث والزاوية التي يفسّرها من خلالها ، فقد أقام الأرناؤوط صلة شبه عدائية بين الغساسنة والقيصر كما بدا في صنيع عمرو بن الحارث ضد القيصر ونجاته منه ، مع أن المراجع التاريخية تذكر أن الغساسنة ظلّوا على ودّهم للروم حتى بعد هزيمتهم في معركة اليرموك . وأما قصة فاطمة البتول ، فعلى الرغم من طابعها التاريخي المعروف الذي يحمل ملامح المأساة الأليمة ، فإن الأرناؤوط شاء أن يجعل النهاية في غير صالح يزيد بن معاوية ، فجعله يفيق من غفلته ، ليقضي فريسة الهواجس والنّذر المرعبة ، حتى أنه يموت ولم يحظ بالتكفير عن خطيئته بالجهاد ، وظلّ مصرع الحسين سوطاً يلهب ظهره حتى مات وعينا الحسين تلاحقانه .

ويبدو أن الأسماء التي جاءت في رواية « عمر ابن الخطاب » مخترعة مع أن جو الأحداث يستند إلى حقائق تاريخية ، إذ لم تذكر المراجع الأجنبية التي تعرّضت لتاريخ هذه الفترة هذه الوقائع الفردية . بيد أن التاريخ أورد أحداثاً عامة تتصل باضطهاد الدولة الرومانية لاتباع المسيحية في عهد جوستنيان ، ثم اضطهاد اتباع المذهب اليعقوبي أو أصحاب الطبيعة الواحدة في سوريا ومصر . فلم يتقيّد الأرناؤوط بذكر الأسماء التاريخية ولكنه التزم الأحداث التاريخية عامة . واختار بعض المواقف المتجادل فيها ، بل إنه أعطى نفسه الحرية في اختيار الرواية التي تناسبه ، بل إنه كان يختار ويحوّر كما يحلو له . وذلك فيما يتصّل بموقف أصحاب البلاد من عرب وغير عرب من الفتح الإسلامي . ونظراً لحماسته لهذا التاريخ فقد وظّفه توظيفاً رمزياً ، فجعل الشخصيات العربية وحدها تشارك في صنع التاريخ ، أما الشخصيات الأخرى التي حفلت بها من مثل « كريستيا » و « سافو » و « بنيامينا » و « نفتالي » و « مارسيليوس » و « زكريا البطريرك » في رواية عمر بن الخطاب ، فلم يشأ الأرناؤوط أن يجعل لهذه الشخصيات دوراً حقيقياً في تحقيق النصر على العدوّ ، لينقذها من بشاعة العبودية والاستغلال . فبنيامينا ونفتالي وكريستيا وسافو ومارسيليوس ضحايا لعسف الحاكم الروماني وأتباعه من رجال الدين .

وعلى الرّغم من زواج سافو من فروة فإنها لم تشارك إيجابياً في الثورة على القيصر ، والانتصار للرسول عليه السلام ، بل لحقت بأخيها كريستيا في معتزله بالجبل ، وتركت زوجها يلاقي مصيره وحيداً وقد كان عملها الوحيد زيارة أرض المعركة بصحبة أخيها كريستيا ، لرؤية فروة على خشبة الصّلب ، أما كريستيا فكان هدفه واضحاً يتمثّل في استرداد التّاج المفقود ، فلما شعر أن صراعه ضد القيصر لن يعود عليه بذلك التّاج ، لأن التاج بعد اليوم ملك العرب ، أحس باليأس ، وآثر العزلة ، ليموت مخضّب الجراح على ضفاف الأردن عند حبيبته بنيامينا . وقتلت بليتزا وابنتها مارية في قضية خاصة تدل على

ظلم القيصر لرعاياه . وأمّا نصرة القضية العربية فقد كانت وقفاً على العرب وحدهم . بل إن الشخصيات العربية كانت في موقف العون من رعايا القيصر نفسه .

وهكذا فإن الأرناؤوط حكم الفترة التاريخية بالرّمز الفني(٧٨) الذي فرضه على أحداث الروايات وشخصياتها ، فخالف من المراجع التاريخية ما لا يحقق وظيفة هذا الرمز على نحو ما رأينا في جعل العنصر العربي إلى صف القضية العربية ، وإن كانت الحقيقة غير ذلك من مثل موقف الحارث الغسّاني الذي قتل رسولَ النبي عليه السلام ، وفي موقف الغساسنة قبل معركة اليرموك وفي أثنائها ، ثم في موقف جبلة بن الأيهم الغسّاني الذي ارتحل إلى بلاد الروم ثأراً لكرامته على رأس عشرين ألفاً من قومه .

وعلى هذا النحو لاحظنا أن الروائيين في هذه الفترة « أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين » وظفوا التاريخ في رواياتهم بما يتفق وأغراضهم وأفكارهم وأهوائهم ونظريتهم في فن الرواية .

وإذا كان الروائيون جميعاً يصدرون عن احترام للنص التاريخي ، ويحاولون تبعاً لذلك ، أن يوثقوا رواياتهم بالمصادر والمراجع التاريخية ، فإنهم أيضاً قد تباينوا في توظيف التاريخ في أعمالهم الفنية من الناحية الفعلية ، إذ نجد البستاني يغلب عاطفته ، تجاه الرومان ، على حسه القومي فينسب إلى التاريخ ما ليس منه حيناً ، ويفسر أحداثاً تاريخية تفسيراً يخالف الحقيقة التاريخية حيناً آخر مثلما نرى جورجي زيدان يعمد إلى تغليب فكرته على الحقيقة التاريخية ، إذ يظل وفياً للحقيقة التاريخية حتى تصطدم مع فكرته الأساسية فلا يجد حرجاً في مخالفة التاريخ ليحقق تلك الفكرة ، على نحو ما رأينا في وصفه المقوقس وصفاً يخالف التاريخ ، وفي توجيه علاقاته توجيهاً يتفق والفكرة الرئيسة .

ولعل الأمر ذاته هو الذي وجه فرح أنطون ، فعلى الرغم من أنه ، وثق مادته التاريخية توثيقاً علمياً أشرنا إليه في متن مناقشة الرواية فإنه كان يخالف الحقيقة التاريخية حين لا تتفق وفكرته الرئيسة .

ومهما يكن ، فإن هؤلاء الروائيين لم تتضح في أعمالهم العاطفة القومية ، تلك العاطفة التي وجهت رواد الرواية في الغرب من مثل والترسكوت كما قدمنا ، ولعل معروف الأرناؤوط يتفرد من بينهم بوجود الإحساس القومي الذي وجه رؤيته للتاريخ من أحداثه وشخصياته ومغزاه فكراً وحضارة ■

● الهوامش ●

(١) الهيام في فتوح الشام مجلة الجنان ، بيروت مجلد عام ١٩٧٤ م .
(٢) أرمانوسة المصرية ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت د. ت .
(٣) فتح العرب بيت المقدس ـ القاهرة ١٩١٩ م .
(٤) سيد قريش (١-٣) مطبعة فتى العرب ـ دمشق ١٩٢٩ م .
(٥) عمر بن الخطاب (١-٢) مطبعة فتى العرب ـ دمشق ١٩٣٧ م .
(٦) فاطمة البتول ـ مطبعة فتى العرب ـ دمشق ١٩٤٢ م .
(٧) د. عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية الحديثة ص ٣٨ في مصر ٩٠-٩٤ .
وانظر أيضاً :

George Lucacs, The Historical Novel Translated From Germany by Hanna and Stanely Mitchell

Humanities Press Atlantic Highlands N.J U.S.A 1978.

حيث أشار لوكاتش إلى أن الرواية التاريخية نشأت بسبب الحروب النابوليونية التي أججت الروح القومية ، وأشار أيضاً إلى أن سكون كان وطنياً فخوراً بتطور شعبه ، وهو أمر حيوي لإبداع رواية تاريخية حقيقية ، انظر مثلاً ص ٥٣ .

(٨) الهيام في فتوح الشام ص ٨٦ .
(٩) أشار إلى أن مراجع روايته هي : الخطط للمقريزي ، تاريخ الطبري ، تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان ، الواقدي ، ابن هشام ، ابن الأثير ، تاريخ ابن خلدون ، حسن المحاضرة للسيوطي، تاريخ عبد اللطيف، مؤلفات شاميليوه ، ومارسيل ، وماريت ، ولكنسن ، وشارب والعقد الفريد .
(١٠) الهيام في فتوح الشام ص ١٠٢ .
(١١) المصدر السابق ص ٢٨٦ .
(١٢) إبراهيم السعافين : تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام ، دار الرشيد ، بغداد ١٩٨٠ .
(١٣) انظر مقدمة رواية « عمر بن الخطاب » وشاكر مصطفى : القصة في سورية ٤٩٠ ، ٤٩١ .
(١٤) تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام
(١٥) الهيام في فتوح الشام ص ٧٨٤ .
(١٦) الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر) فتوح الشام ـ ط ١ ص ٨٣ ، دار الجيل بيروت د. ت .
(١٧) ابن خلدون ، عبد الرحمن : تاريخ ابن خلدون في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم

من ذوي السلطان الأكبر المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ١ ص ٣٦٤ ، مطبعة النهضة بمصر ١٩٣٦ م .

(١٨) الهيام في فتوح الشام ٦٨٤ .

(١٩) الطبري أبو جعفر بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار سويدان بيروت لبنان .

(٢٠) DONEER, FREDMC GRAW : The Early Islamic Conquests P. 140 Princeton University Press New Jersy 1981.

(٢١) Ibid P. 144

(٢٢) الهيام في فتوح الشام ص ٣٩٣ .

(٢٣) المصدر السابق ص ٥٧٣ .

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٨٦ .

(٢٥) فتوح الشام جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢٦) البلاذري ، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ص ١٢٠ .

(٢٧) الهيام في فتوح الشام ص ١٧٦ .

(٢٨) المصدر السابق ص ٥٣٥ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٥٣٦ .

(٣٠) تاريخ الكامل ج ٢ ص ١٧٣ .

(٣١) The Early Islamic Conquests P. 19.

(٣٢) الهيام في فتوح الشام ص ٦٤٧ .

(٣٣) فتوح الشام جـ ١ ، ٥٢-٥٤ .

(٣٤) الهيام في فتوح الشام ص ٧٥٣ .

(٣٥) المصدر نفسه ص ١٣٨ .

(٣٦) فتوح الشام ص ١٢ .

(٣٧) المصدر نفسه جـ ١ ، ص ٦٥ ، ١٦٩ وغيرها .

(٣٨) أرمانوسة المصرية ص ٩ - ١٠ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤٠) د. شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ط ٥ ص ١٣٤ دار العلم للملايين ١٩٨٠ م .

(٤١) Butler, Alfred J, The Arab Conquest of Egypt P. 3 Oxford 1962 .

(٤٢) Ibid P. 178, 188 .

(٤٣) حركة الفتح الإسلامي ص ١٣٤ .

(٤٤) The Arab Conquest of Egypt P. 175

(٤٥) فتوح البلدان ص ٢١٧ .

(٤٦) حركة الفتح الإسلامي ص ١٣٩ .

(٤٧) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٤٨) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٤٩) أرمانوسة المصرية ص ٣٩ .

(٥٠) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ١٤٣ .

(٥١) أرمانوسة المصرية ص ٣٩ .

(٥٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٣٤٥ .

(٥٣) علق جورجي زيدان على ضحية النيل في هامش ص ٥٣ بقوله : « إن القول بضحية عند المصريين لم يثبت ، وإنما جئنا به هنا للإشارة إلى ما يقال في هذا القبيل ، وفيه لذة وتسلية ، أما رأينا فتجده مفصلاً في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من (الهلال) الصادرة في ١٥ أغسطس ١٨٨٥ » وانظر فتوح الشام جـ ٢ ص ٦٩ .

(٥٤) فتوح الشام جـ ٢ ص ٤٥ وما بعدها .

(٥٥) المصدر نفسه ص ٨١ . وانظر نص كتاب الرسول عليه السلام إلى هرقل في تاريخ ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٥٦) انظر أرمانوسة المصرية ٤٢ .

(٥٧) المصدر السابق ص ٤٠ – ٤١ .

(٥٨) المصدر نفسه ص ٤٢ ، وانظر فتوح الشام جـ ٢ ص ٦٤ .

(٥٩) المصدر نفسه ص ٤٥ .

(٦٠) المصدر نفسه ص ٤٥، ١٤٤ .

(٦١) المصدر نفسه ص ١٥١ .

(٦٢) انظر أرمانوسة المصرية ص ٨٢ وانظر كذلك السيرة النبوية لابن هشام القسم الثاني ص ٢٧٧ – ٢٧٨ تحقيق مصطفى السقّا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ط ٢ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٥٥ .

(٦٣) أرمانوسة المصرية ص ٨٢ وانظر لابن كثير : الإمام أبي الفداء إسماعيل : شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٦٧ .

(٦٤) أرمانوسة المصرية ص ٨٤ ، وشمائل الرسول ص ٨٦–٨٩ ، وفتوح الشام جـ ٢ ص ٣٧ .

(٦٥) أرمانوسة المصرية ص ٧٤ وانظر حركة الفتح الإسلامي ص ١١٣ نقلاً عن ابن عبد الحكم .

(٦٦) أرمانوسة المصرية ص ٢٧ ، ٣٤٢ وانظر The Arab Conquest of Egypt P. 188 ، وقد أورد ابن خلدون نص الحلم في تاريخه جـ ٢ ص ٣٤٠-٣٤١.

(٦٧) انظر أرمانوسة المصرية ص ١٨٥ ، وكتاب تاريخ الحكماء مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات ، كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ٣٥٣ - ٣٥٧ ، مكتبة المثني ببغداد ، ومؤسسة الخانجي بمصر د. ت .

(٦٨) الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٦٩) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٧ .

(٧٠) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٧١) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٧٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٦ ص ٢٦٣-٢٦٤ تحقيق أحمد أمين وزملائه ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٩ .

(٧٣) فتوح الشام جـ ١ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٧٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٦٩ .

(٧٥) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٧٦) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٧٧) البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الأول ص ١٨٧ ، نشر صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ ، وفتوح الشام جـ ١ ص ٧٧ .

(٧٨) انظر تفاصيل ذلك في كتابي « تطور الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام » ص ١٦١ وما بعدها . دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨٠ .